أبواب

ABWAB

4

غودفري غودوين عن
عمارة العالم الإسلامي

■

صعوبة تأسيس التسامح
على معطيات التراث

■

مناقشة محمد اركون :
بين النص والخطاب

■

النازية الألمانية الجديدة
بعد وحدة الألمانيتين

■

تأريخ اريك هوبزباوم
لقرننا العشرين "القصير"

■

اسماعيل كاداري عن
الموت في الديكتاتورية

دار الساقي

ABWAB أبواب
العدد ٤، ربيع ١٩٩٥

ساهم في هذا العدد

(بحسب الترتيب الأبجدي للأسماء)

إيبرهارد كينله	كاتب وجامعي ألماني.
إيمّا سنكلير ويب	كاتبة بريطانية.
جورج طرابيشي	مؤلّف وناقد أدبي سوري.
حسن داوود	روائي وصحافي لبناني.
حسّونة المصباحي	كاتب تونسي.
خلدون حسن النقيب	كاتب وجامعي (الكويت).
عزّة شرارة بيضون	جامعيّة لبنانية.
عزيز العظمة	كاتب وجامعي سوري.
غودفري غودوين	بروفسور عمارة بريطاني.
كنعان مكيّة	كاتب ومهندس عراقي.
مي غصوب	كاتبة ونحّاتة لبنانية.
ندى رمضان	كاتبة لبنانية
هدى بركات	روائيّة وكاتبة لبنانية.

ABWAB أبواب

المحتويات

أفكار

كنعان مكية — تأسيس التسامح على التراث؟ ٩
عزيز العظمة — اللاعقلانية في الفكر العربي الحديث والمعاصر ٢٢
خلدون حسن النقيب — السياسة تسليةً، والثقافة واقعاً وهمياً ٣٦
إيبرهارد كينله — النازيون الجدد واليمين المتطرّف في ألمانيا الواحدة ٤٤

ثقافة

غودفري غودوين — ماء العالم الإسلامي وسماؤه ٥٥
عزّة شرارة ـ بيضون — أوديب الذي لا ينحل ٦٨
مي غصوب — تحليل صورة: رموز حليقة ١٠٤

كتب

ايمّا سنكلير ويب — تاريخ هوبزباوم لقرننا: تأريخ وسيرة ١١٤
جورج طرابيشي — محمد أركون: النص والخطاب ١٢٢
إسماعيل كاداري — حياة الديكتاتورية وموتها ١٣٦

نصوص

هدى بركات — الرسالة ١٥٠
ندى رمضان — غسّالة لها صوت ضجرهنّ ١٦١
حسّونة المصباحي — بعد كوبلنتس ١٦٥
حسن داوود — رسوم على الشاطىء ١٨٠

أوديب الذي لا ينحل
حيدر: دراسة حالة في الفصام العظامي

عزة شرارة بيضون

تندر التقارير في دراسة الحالات في الأدبيات النفسانية اللبنانية. إذ يقتّر من هم في موقع المعاينة، العلاجية خاصة، في نشرها. ولعل هؤلاء يعتبرون التراكم الذي حصل في مصادر النظرية التي يستندون إليها كافياً، أو أن إضافتهم إلى هذه النظرية لا يستدعي عرضهم أو تحليلهم للحالات التي يعاينون. فيفتقد المهتمون بعلم النفس والتحليل النفسي عندنا، هذه الناحية من أدبيات علم النفس التي استغرقت، وما تزال، حيزاً لا يستهان بحجمه في نمو البعد المعرفي في علم النفس التحليلي والتحليل النفسي الغربي وتطورهما.

ونقدم فيما يلي عرضاً ـ وصفاً وتحليلاً، لشخصية فصامية ـ عُظامية يرتكز على عدة مقابلات أجريت مع نزيل إحدى المصحات العقلية في لبنان (سوف ندعوه حيدر) في إطار دراسة أكاديمية. وهي، برأينا، حالة مثيرة للاهتمام لأنها تكاد تتطابق في الشكل مع حالات الفصام ـ العظامي الكلاسيكية، ولا تعدو ثقافتنا الاجتماعية أن تكون المناسبة والشاهد والمادة لتحقيقها. ولأننا لا نملك تدريباً عيادياً مستفيضاً، فإن العمى الإدراكي هو أمر غير مستبعد، إلا أن افتراض حدوثه لا ينفي واقعة وفرة مادة المقابلات وغناها، ما يسمح بتقديم نموذج «محلي» لهذه الشخصية يلتقي في نقاط كثيرة بالنموذج المعروف في أدبيات التحليل النفسي الأجنبية، حيكت بعناصر من ثقافتنا الاجتماعية وتلونت بواقعنا الحالي في أبعاده المختلفة.

ونبدأ بعرض وقائع المقابلات وعددها ثمان لتُرسي قاعدة لوصف مظاهر المرض وسرد التجربة الوجودية لحيدر وصولاً إلى تحليل الأصول الدافعة للبنية الفصامية الحالية وديناميات الدفاع الذي يخوضها المريض في وجه تشكلها النهائي.

ونحن لم نتبع تقنية محددة في اجراء المقابلات: حاولنا تحقيق «لقاء حسن» مع المريض وما يفترض ذلك من استقبالية تامة خالية من أي توتر ذهني أو نفسي. وحاولنا في الوقت نفسه، أن نحتفظ بانتباه عائم بحرية نستطيع معه أن نرافق المريض في كلامه وتداعياته. وكنا في فترات السكوت نعيد صياغة مشاعره وتقييماته التحكيمية.

طرحنا بعض الأسئلة التي تطول جوانب لم يذكرها في علاقته ومشاعره. لم نسجل أي شيء خلال الجلسة باستثناء الجلسة التي أجرينا فيها «رائز تبصّر المتون» (Thematic Apperception test-TAT).

أولاً ــ المقابلات

المقابلة الأولى: ٢١ نيسان (أبريل) ١٩٨١

مشى حيدر ذو البنية النحيلة جداً، الخجول جداً، إلى آخر الممر حيث جلسنا مواجهة تفصل بيننا طاولة سجائر. أعطاني الممرض ملفه. لم أفتحه، ولكنني قرأت اسمه وناديته به سائلة عن حاله.

قال: إنه في غاية الانحطاط والتدهور منذ أن دخل المستشفى.

قلت: إنني طالبة علم نفس.

أومأ: إنه يعلم ذلك.

سألته ما إذا كان يحب أن يتحدث إليّ.

قال: لا بأس (وتابع) أن وضعه قد ازداد تدهوراً منذ أن دخل المستشفى اللعين، وهو قلق مرعوب حول التطور الذي حصل له خلال الشهر الأخير من وجوده في المستشفى... إذ أصبحت تزوره كوابيس رهيبة، تنال الله...

كان يبدو منزعجاً وخجلاً من ذكر الكوابيس فيخبىء عينيه بيده عندما يذكرها، وعندما طلبت إليه أن يصف مضمون هذه الكوابيس غمغم وكأنه يخجل من ألاّ أصدقه:

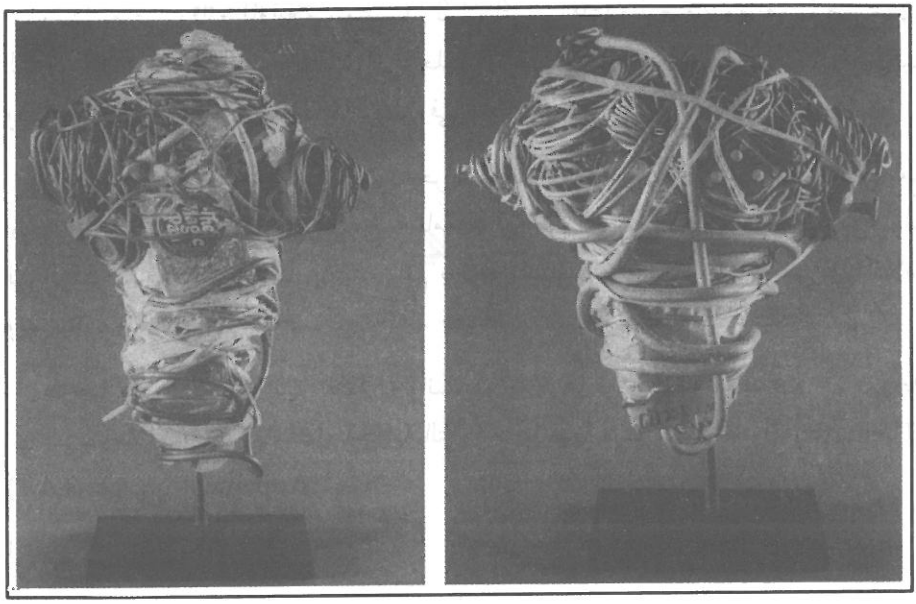

عملان من أصل ٧٠٠ منحوتة لرؤوس من أشرطة اكتشفت مؤخراً مرمية في المهملات في فيلادلفيا، صانعها مجهول.

كلمات قليلة عن **نزول الله إلى الأرض** وجلوسه تحت الطاولة في المستشفى... **وهو يظهر له بشكل اشعاع وبروجكتورات كهربائية**. وحيدر لا يكلمه ولا يعرض عليه مشاكله... رددها أكثر من مرة.

ثم أخبرني بعد السؤال بلهجة رتيبة، أن حالته هي بنتيجة وفاة أمه وهو عمره سنة ونصف السنة، ثم تولّته عمته حتى سن الخامسة، وهي ما لبثت أن ماتت أيضاً. وهو يرى أن وجود الأم ضروري لادخال الطفل إلى المجتمع الأول الذي هو المدرسة ـ يتكلم أحياناً بالفصحى وبنفحة خطابية ـ ف «الهجمة» على المجتمع تتطلب أن تقف الأم بجانب الطفل كي يتحمل صدماته: فهو عندما ذهب إلى المدرسة «استلمه» الأولاد «وتزانخوا»(*) عليه ـ هنا في بيروت ـ وكأنهم يعرفون أنه بلا أم. وهو لم يستطع مواجهتهم... «حتى الشرع يعترف بأهمية وجود الأم أو بديلتها حتى سن السابعة وأنا افتقدت وجود الأم أو بديلتها في الخامسة، وهاتان السنتان (٥ ـ ٧) لهما أهمية كبيرة، فإما أن «يرتفع» الفرد أو

(*) كلمة بالعامية اللبنانية تعني أنهم أثقلوا عليه وضايقوه.

«يهبط»: وجود الأم «يُرفع» وغيابها «يهبط». هذا ما حدث لي بالضبط هم (أي، والده وأخوته) أرسلوني في سن الخامسة إلى عند جدي وجدتي. جدتي عاجزة، علي أن أخدمها أنا بدل أن تخدمني هي».

سألته عن أبيه.

أجاب: لا بديل للأم، والعنصر الأنثوي ضروري لينمو الفرد فكرياً وعاطفياً. وقال إنه قد شبّ انطوائياً اجمالاً وفي سن الـ ١٤ بدأ «يفوق لنفسه»، أي أنه اكتشف ذاته وإن عليه أن يبنيها. ولكن ضربة أساسية أصابته هي «سقوطه» في البروفيه (الشهادة المتوسطة) كانت مهمة إذ «زلزلت» دماغه و«هزت» رأسه وأعصابه كثيراً.

حدث هذا سنة ١٩٧٤ (هو مولود عام ١٩٥٧)، ثم أتت الحرب الأهلية التي كان لها دور مهم في حالته الحالية.

(كان يردد خلال حديثه هذا وعند محطات كلامه أنه انتهى، وأن هذا يحدث دائماً).

أخبرني كذلك عن المراحل السياسية التي مر فيها، فقال إنه بدأ بعبادة الأبطال ثم كان له بعض الأصدقاء الشيوعيين في المدرسة. وعام ١٩٧٥ ترك الشيوعية نهائياً وهو لم يدخل الحزب أصلاً و«تعمق» في الدين الإسلامي.

سألته إذا كان يمارس الشعائر الدينية.

أجاب لا ولم يتعلمها أصلاً وهذا أمر غير مطلوب منه، فهو «معقد نفسياً» والله لا يطلب منه ذلك.

سألته مرة أخرى عن كوابيسه. وإن كان قد تكلم إلى الله عند نزول هذا الأخير على الأرض.

قال (بحقد وغضب): «إن الله لا يستمع إلى عباده وهذا بالذات محور تفكيري عن الله حالياً، فالله «مزاجي» **وهو لذلك «يكون غير عادل»**. ولو كان عادلاً وغير ظالم لالتفت إلى عباده ـ وبالتالي التفت إليّ، وخلصني من محنتي وأنقذني في الوقت المناسب عندما كنت بحاجة إليه في سن الـ ١٥، فما كان أصابني ما أصابني الآن. ولكنه لم يفعل وهذا بالذات ما يشغل تفكيري حالياً».

سألته إذا كان يتضايق من أفكاره هذه حول الله وظلمه.

قال كلا، **إن الله** عندما يفعل ما يفعله بفرد ما **يكون عادلاً** ولكن على الفرد أن يتلمس مكامن العدل هذا.

في واحدة من محطات سكوته سألته إذا كانت له صلات عاطفية.

قال أبداً... لا شيء يذكر، وهو يرى أن صلات كهذه مستحيلة في غياب أم له تنمي هذه العاطفة.

ودعته بعد أن سألته إذا كان يمانع في أن أراه مرة أخرى. قال «أبداً».

المقابلة الثانية: الثلثاء ٢٨ نيسان

بدا لي حيدر في بداية الجلسة متردداً في الكلام.

سألته عن حاله: إن شاء الله أحسن؟

قال (باختصار) أحسن. وبدأ يردد كلمات بلهجه تذمر «هيدى هي كل القضية من أولها لآخرها»..

سألته عن المستشفى.

قال هنا تكمن المشكلة.

سألته هل من جديد يود أن يخبرني به؟

قال إن كل شيء على حاله لولا «الليمونة»(*) اليوم.

سألته ما حكاية الليمونة هذه.

قال إنها حكاية غير مهمة ولو أنه أكلها لقضي عليه. فهو بعد أن أكل طعام الغداء رمى الليمونة **لأن الليمونة «تخصي الرجل»** فالحموضة تؤثر في الجسم وتهلكه وتفتّته وهو لا يريد أن يحصل له ذلك، فرماها ولم يأكلها.

وهو يرى أن المرضى والممرضين ـ يدعوهم بـ «هم» ـ يتآمرون عليه وأن الحق كله على

(*) بالعامية، وتعني البرتقالة.

ر.أ. (شخصية سياسية عسكرية اقليمية) الذي يحاول أن يقتله كما قتل اخوته الشباب وأباه من قبل مرات عديدة. ولهذا جواسيس في المستشفى ضده شخصياً (لأنه يعادي الله) وقد سمعه أبو ر.أ. . الذي هو مريض حالياً في المستشفى . وهو يقول إن الكتائب ستهجم على المناطق الوطنية، فثارت ثائرته وقاصصه بقتل أخوته وأبيه الذي عاد الله فأحياهم من جديد.

وهنا قدم لي تحليلاً سياسياً ممجوجاً للوضع (من اللهجة الرتيبة المستعملة): قال: «إن سوريا والكتائب سوف تتحاربان فتتدخل إسرائيل لحماية الكتائب ومن ثم تقع الحرب بين إسرائيل وسوريا مما يورط الاتحاد السوفياتي الحليف وأميركا الصديقة وتقع حرب عالمية وسوف يفنى البشر ما عدا ٥٠٠ مليون شخص. وستعلم إحدى المجرات الشمسية بما حصل فترسل جنودها لتفني ما بقي من البشر. هذا يستدعي تدخل الله شخصياً». إن ما يقوله هو قد حدث فعلا: «آدم بنفسه هو الآن على الأرض. قتل كل من في المستشفى».

سألته كيف:

قال: أكل كل شيء. حتى الحجارة. وهو رأى رجلاً كبيراً ـ ربما كان والد ر.أ . يموت بنوبة قلبية، فباله مشغول ليس فقط بما يجري في لبنان بل كذلك بما يجري في العراق وسوريا.

تابع (بعد سكوت):

إن كل شيء قد بدأ عام ١٩٧٧ عندما كتب مقالة حول التحريمات في الزواج. كان يومها صغيراً لا يفهم بعد. وقد كتب مناصراً الزواج من الأقارب: الأخ من أخته والأم من ابنها والأب من ابنته. وهو قد اضطهد لذلك ولكنه كان «مش واعي»(*) وقتها ولا يعرف عما يتكلم.

سألته: هل نشرت ما كتبته في مجلة ما؟

قال: كلا كتبته على ورق عادي.

تابع: ان هناك حوالى ٥٠٠ عالم يدرسون أو يغسلون دماغه لا يدري بالضبط ماذا، وهم لذلك يعزلونه هنا.

(*) أي ليس واعياً.

لماذا؟ سألته.

قال انه يملك المقدرة على التأثير بعينيه المغناطيسيتين اللتين ترفّان فتتداخل الغرف ببعضها ويستطيع أن يرى أشياء لا يراها غيره. وقد «سلّطوا» عليه الجنيات وابليس الذي يسكن هنا لكي يخففوا من تأثير هذا. ولتحييد تأثير الجنيّات أخذوا دماء من المرضى ـ طازجة ـ ووضعوها في زجاجة لجذب الجنيات إليها. هكذا عاد المرضى فاستعادوا عافيتهم لم يحدث لهم شيء (كررها عدة مرات).

وهو يرى أن المرضى يسيئون معاملته ويهينونه، وبالمقابل لا يقدر أن يفعل شيئاً. وهو فقد عافيته ـ أصبح جلداً على عظم. «وماذا أستطيع أن أفعل؟» يقولها كطفل صغير يشكو.

وهو في كل كلامه كان مطرق الرأس وقلما نظر إليّ بعينيه الحزينتين مباشرة. وبعد أن سرد عليّ هذياناته وهلوساته أسرّ إليّ بألم كبير أنه يعلم أن كل ما يقوله مناف للعقل وأن حسه العلمي يخبره أن ما يقوله غير واقعي ولكن ماذا يفعل إذا كان كل ما قاله لي هو بالنسبة له حقيقة وواقع وكيف تراه يكذّب ما يراه ويحسه ويسمعه كما هو يحس يديه الآن؟ (يفرك بيديه).

المقابلة الثالثة: الخميس ٣٠ نيسان

بدا حيدر هذه المرة نظيفاً نسبياً، وأكثر حضوراً من المرات السابقة. سألته عن حاله، قال إنه أحسن هذه المرة وإنه يشعر أن كل أوضاعه تحسنت وأنه **سوف يترك المستشفى** ربما غداً. الجمعة ـ عندما يأتي والده وأخوته الثلاثة لزيارته (هم يأتون غالباً كل أسبوع لزيارته) وهكذا سيترك هذا المستشفى اللعين الذي كان له الدور الكبير في تدهور أوضاعه الصحية. فهو كان قبل أن يدخل إلى هنا «طبيعياً» ولكن هنا، وبفعل المرضى والممرضين تدهور وضعه الصحي والفكري وحتى العقلي. فهو هنا «مسلوخ» عن محيطه الطبيعي (يقولها بتشنج وبصوت عال) وموضوع بين أناس تافهين ومستبدين. عندما أتى، هذه المرة، إلى المستشفى كان ذلك من أجل أن **«يصفّي حسابات» عالقة** مع العاملين فيها ولكنهم استلموه عند الدخول فمعسوه بأرجلهم (يريني آثار الحساسية المفرطة التي أصابته من جراء أخذ الأدوية... كما جاء في تقرير من ملفه) وهم أقوى منه جسدياً ويتعرضون له بالضرب...

سألته إذا كانوا يضربونه فعلاً؟

قال: ليس فعلاً. ولكنهم يذيقونه الإهانات على أنواعها.

سألته عن مشاريعه عندما يخرج غداً.

قال إنه **سيعود لمتابعة دراسته الجامعية** وإنه سوف يحضّر «كوراته»(*) ويلخصها. سألته إذا كانت معه.

قال كلا وانه لم يطلبها من أخوته لأنه يعتقد أن الممرضين والخدم سوف ـ «بدون شك» ـ يتلفونها تماماً كما يفعلون بالفاكهة التي تصله والتي يبدلونها بفاكهة أخرى.

سألت: لماذا؟

قال: لهذه قصة طويلة... وجانب الموضوع.

بعد السكوت يبدأ:

عند بداية المرحلة الاعدادية الدراسية في حياته ـ أي بداية المراهقة ـ العاطفية والجسدية **حدث له حادث مع ولد صغير هو ابن عمه** في بلدته ح (بجنوب لبنان) حيث كان يقضي فصل الصيف مع بيت عمه في بيت واحد. هذا الحادث عكر بداية هذه المرحلة ووصمها كلها... «والناس لا تنسى بل تصم الفرد وتذكره بما فعل طوال عمره».

سألته: ما هو هذا الحادث؟

يغمغم: ... إنه كل شيء جائز وما حدث قد حدث... إلخ (لم اجرؤ على سؤاله إذا كان حادثاً جنسياً إذ لم يبدُ لي أنه يفترض انني استنتجت ذلك).

كانت النتيجة أن تشاجر مع بيت عمه بعد الحادث.

وهناك حادث آخر أثر في حياته تأثيراً كبيراً... ففي عام ١٩٧٧ كان قد أخذ قرارات مهمة تتعلق بإعادة بناء شخصيته وسلوكه في مواجهة المجتمع الذي لم يكن يعرف حتى ذلك الوقت كيف يواجهه، فإذا به يتعرض لمضايقة من أبناء الجيران، فخبط الباب في وجههم فما كان منهم إلا أن شتموه.

(*) هي تعريب لـ Cours بالفرنسية، أي الملاحظات التي يدوّنها الطلاب في الجامعة عند القاء الأستاذ محاضراته.

سألته: كيف سمعتهم؟

قال من خلال الحائط وهو لم يواجههم كما يجب، فقد كان جباناً.

لقد شكل هذا الحادث اختباراً له تبين له فيه أن شخصه ما زال **ضعيفاً** في مواجهة المجتمع فانهارت أحلامه في إعادة بناء ذاته.

بعد الصمت سألته أن يخبرني **عن علاقته بأبيه.**

أجاب دون تردد: **جيدة** ككل علاقة ابن بوالده إذ لا يستطيع الفرد أن يكون عاقاً إلى هذا الحد. (إلى أي حد؟).

سألته: هل كان يعطف عليك ويدللك وأنت صغير؟

قام بوصف الحدود الجغرافية للمنطقة التي يسكنها والتي يمكن التجول فيها.

سألته ما علاقة هذا بالسؤال؟

قال: إن أبي كان يحبني وكنت ألمس حبه عندما كان يسمح لأخي أن يأخذني «مشاوير» في منطقتنا. وهو على كل حال لا يعتقد أن الحب والعاطفة هما من مهمات الأب، فهو مشغول طوال النهار في تحصيل المعيشة، والرعاية والعطف هما من مهمات الأم التي افتقدها منذ كان عمره سنة ونصف السنة، وهذا بالذات ما أثر فيه وجعله مريضاً نفسياً كما هو الآن ومحطماً (يقولها بشحنة).

* * *

المقابلة الرابعة: الخميس ٧ أيار (مايو)

كان حيدر هذه المرة في حالة متميزة عن حالاته السابقة. كان هادئاً وكان كلامه خالياً من الشحنة القوية. كان يخاطبني ـ أي انه كان يفترض وجود شخص يستمع إليه. كان متحفظاً أكثر من المرات السابقة. لم يقترب بتاتاً من هذياناته أو هلوساته بل على العكس كان يبدو واثقاً من استبعادها تماماً.

بدا لي نظيفاً ويلبس بيجاما نظيفة. لم تعد عيناه غائمتين أو حزينتين. نظرا إليّ بتركيز ولم يضع، هذه المرة، يده ليخفي عينيه أبداً.

سألته عن حاله، فأجاب: ان حاله هي هي... وكالعادة بدأ يصب جام غضبه على

المستشفى، ولكن هذه المرة كان كلامه أكثر «موضوعية».

قال: ان هذا المستشفى ليس مصحاً كما يجب يكون، أي انه لا يؤمّن الأجواء الصحية للمرضى كي يشفوا. هو فقط زريبة يحبسون فيها الناس ويضعون فيها المجانين الذين ينبذهم أهلهم. وهو قد توصل إلى هذه النتيجة منذ المرة الأولى التي دخل فيها، أي عام ١٩٧٧. هو كان قد دخل إلى هنا على أساس ان المستشفى يحترم نفسه ويقدم العون الإنساني للمرضى من جهة والتحليل النفسي من جهة أخرى. ولكن تبين له أنهم لم يسمعوا بالتحليل النفسي إطلاقاً. هو ليس بحاجة لمستشفى كهذا، أضمن له بكثير أن يرى طبيباً من خارجه يمارس التحليل النفسي. هذا المستشفى لا يشفي بل انه كفيل بأن تسوء حالة المرضى فيه أكثر فأكثر. ودعاني لأنظر إلى جسده الذي بات أكثر نحولاً من السابق وذلك ليس لأنه لا يأكل. هذه ليست المسألة ولكن أعصابه ودماغه ونخاعه الشوكي في حالة يُرثى لها من الانحلال والضعف وكل ذلك بسبب هذا المستشفى.

سألته ماذا يعرف عن التحليل النفسي الذي يود أن يخضع له؟

قال:ان هناك عدة طرق منها طريقة فرويد الذي يطلب فيها إلى المريض ان يستلقي على السرير ويقوم الطبيب بتقصي عِقَد المريض من كلامه ويحللها له ويقول له ماذا يعمل.

سألته إذا كان يريد أن يرى طبيباً نفسياً عندما يترك المستشفى.

قال: كل شيء ممكن (هذا محط كلامه) وهذا يعتمد على الأمور في الخارج... فهو بقي هنا شهرين ولا يعرف تماماً ماذا حدث في الخارج لأن ذلك هو ما سيقرر ما عليه أن يفعله.

سألته: هل يعرف طبيباً نفسياً معيناً؟

قال: الطبيب النفسي مدير المستشفى، وهو كلما أتى إلى المستشفى طلب مقابلته (بدا لي فخوراً بذلك).

سألته: ماذا سيفعل عند خروجه.

قال انه لا يعرف بالضبط، ذلك يعتمد على ما سيكون قد حل في الخارج.

سألته: في أي مجال؟

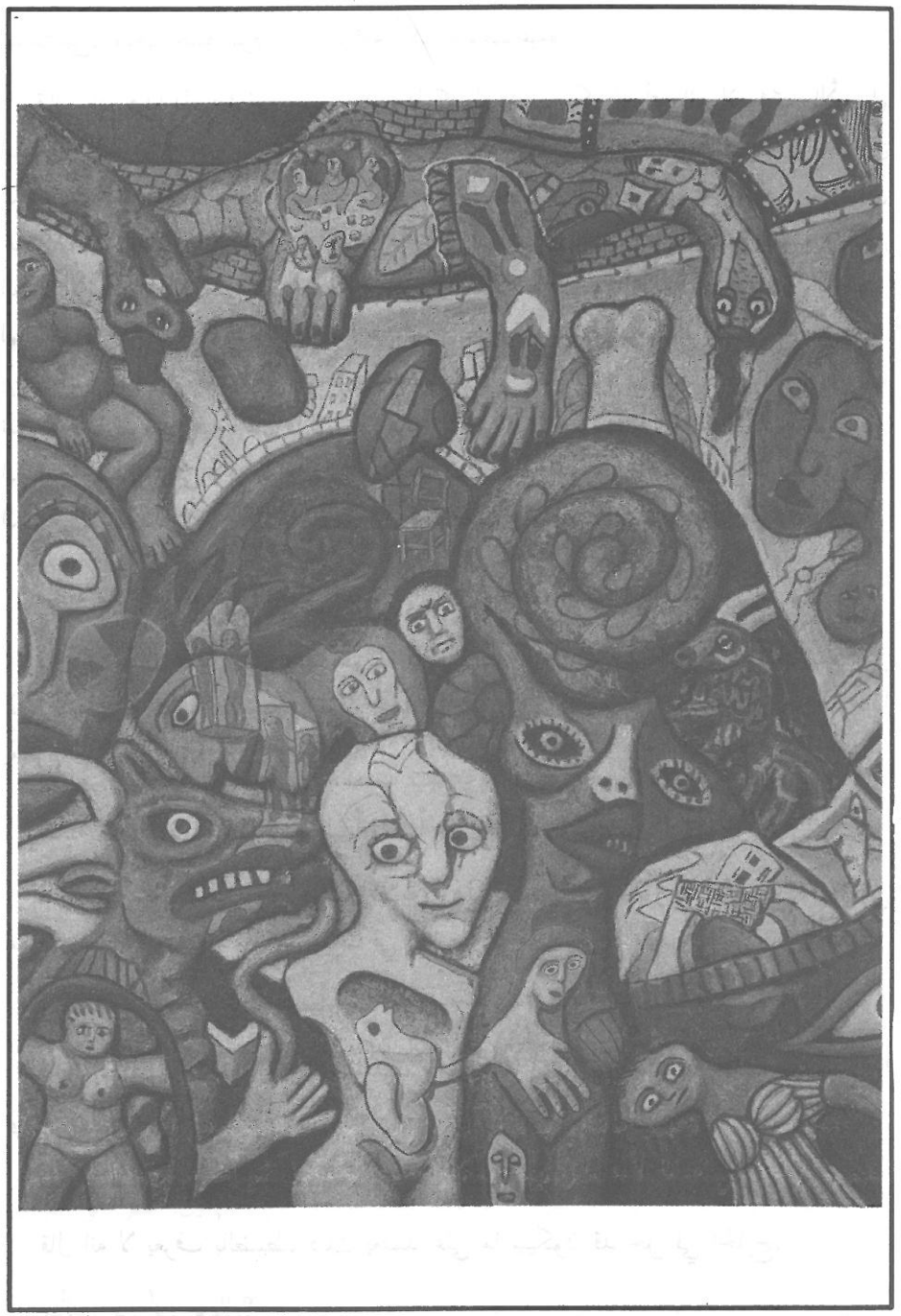

قال: ان هناك مشاكل عالقة في المحاكم بينهم وبين خاله حول عقارات معينة وان نتيجة هذه المسائل ستقرر مصير ما سيفعله هو. على كل حال سيعود إلى دراسته ويلاحق «كوراته» وما إذا كانت الدراسة قد «سبقته».

طمأنته: ان الجامعة كانت متوقفة على مدى شهرين، فقال انه يعرف ذلك.

سألته عن تفاصيل المشاكل مع خاله فبدا مراوغاً ومتحفظاً.

سألته إذا كانت المشاكل العالقة ستحل المشاكل المادية.

قال: ان المسألة المادية ليست مهمة... وبدا غير مرتاح في الاقتراب من هذا الموضوع فتركته.

سألته.. (بعد صمت) أن يخبرني عن سبب ادخاله آخر مرة إلى المستشفى، فتكلم بشكل متردد عن مشكلة ـ لم يود ذكر التفاصيل ـ مع جيرانه وانه ذهب إلى المخفر لتقديم شكوى بحقهم فتدخل أخوه عند الضابط وقال له ان أخاه يعاني من مشاكل عصبية وأتى به إلى المستشفى بملء إرادته، فهو أراد أن يصحح شخصيته التي كانت بحاجة لذلك بنسبة ٢٥ في المئة. أما الآن في المستشفى فقد هبطت النسبة السويّة عنده إلى ١ في المئة، فهو ٩٩ في المئة مريض وذلك بسبب العزلة المفروضة عليه هنا.

سألته: (بعد صمت) أن يتكلم على علاقته **بأخوته**.

قال: انها طبيعية (رددها أكثر من مرة). وهي كعلاقة أي أخوة مع بعضهم وهم الثلاثة (الفرق بينه وبينهم هو على التوالي ١١، ٨، ٤ سنوات) كانوا يعطفون عليه زيادة وذلك بسبب وفاة أمه وهو صغير. لم يضربوه كثيراً. كانوا يؤدبونه من وقت لآخر. آخر مرة ضربوه كان في الخامسة عشرة وهو يرى ان ذلك كان ضرورياً إذ على الواحد ألا «يفلت كثيراً».

سألته: هل كان يلعب معهم؟ هل هناك علامة متميزة تجمعه بواحد دون الآخرين منهم؟ هل عندهم أصدقاء مشتركين؟ هل يذهب معهم إلى الأماكن نفسها؟

قال: كلا، لم يلعب مع أي واحد منهم. ولا علاقة خاصة تربطه بواحد دون الآخرين ولا أصدقاء مشتركين، والوحيدون الذين يذهبون إليهم معاً هم الأقارب «للواجبات».

سألته هل كان يحس ان أباه يفضل واحداً منهم؟

قال: كلا أبداً. هو على كل حال لا يستطيع إقامة صلات مع الناس فهو ليس متكيفاً.

سألته أن يفصح عن ذلك.

قال ان صلاته مع الأصدقاء تبقى محدودة ولا تتعدى الكلام العام من جهة ومجالها محدود وهي غير متوترة.

سألته ان يحدد ما معنى العلاقة المتكيفة مع الناس.

قال ان ذلك يعني بالنسبة له أن يذهب معهم في رحلاتهم وان يشاركهم في حفلاتهم وهو بالطبع لا يستطيع أن يفعل ذلك بسبب وفاة والدته. (كما أخبرني سابقاً) وهنا عاد إلى اخباري «الفرمان» ذاته وفاة أمه وحاجته المبدئية لها في مواجهته المجتمع.

المقابلة الخامسة: السبت ١٦ أيار

لم يلاحظ حيدر وجودي عندما دخل إلى بهو الجناح بل سلم على زميلي... ثم التفت فسلّم علي واتجه صوب نهاية الممر ـ حيث نجلس عادة ـ ولكن كان المكان مشغولاً بمجموعة من النزلاء يتحادثون بأصوات مرتفعة، وبدا لي كأنه يطلب إليهم أن يخلوا المكان. أشرت له بأننا نستطيع الجلوس في الصالون الملحق بالجناح. وقد بدا لي، لاحقاً، أن تغيير المكان أو الجلوس على شكل زاوية معه ـ بدل المواجهة ـ أو اغلاق الباب، لم يكن مريحاً جداً. انطوى على ذاته ولم يسند ظهره على الكرسي كالعادة.

سألته عن حاله.

قال: ما في شيء جديد... كله كما في السابق... ما في شيء مهم.

سألته إذا زاره أهله.

قال: نعم أتوا البارحة... قالها باقتضاب ولم يزد شيئاً.

صمت طويل... صبرت قليلاً قبل أن أقطعه.

قلت: **أخبرني يا حيدر عن طفولتك**، ليس بشكل عام كما أخبرتني سابقاً بل أرجو أن تصف لي مشاعر قوية ما زلت تذكرها رافقت أحداثاً معينة.

أجاب انه لا يتذكر طفولته اجمالاً. ولكنه يذكر يوم وفاة عمته التي ماتت وعمره

خمس سنوات فقط. هي كانت تحبه وتعطف عليه وهو بكى عليها ـ يتذكر تماماً ـ انه بكى ربما للمرة الوحيدة في حياته..

سألته أن يحاول أن يحدد لماذا بكى.

قال: لأنها عزيزة عليَّ فهي كانت تعتني بي.

قلت: أحسست انك فقدت شخصاً يعتني بك؟ فقدت مُعِيناً؟

قال: طبعاً... وأنا كنت أعزها كذلك.

قلت: ماذا حدث بعد ذلك؟

قال: (بلهجته الرتيبة): بقيت مع جدتي وجدي في بيت مهجور. جدتي عاجزة لا تستطيع أن تعتني بي. تستطيع فقط أن تراقبني. وجدي خارج البيت، وأنا قضيت في هذا المكان سنة أو سنة ونصف السنة من عمري **كانت فارغة... أحسست فيها بفراغ كبير.**

قلت: هل أحسست بأنك وحيد... هل أحسست بالوحدة؟

قال (بحدة وشحنة كبيرتين): كان يمكن على الأقل أن يعتنوا بي... كانوا أخذوني ووضعوني في مدرسة في بيروت... وعند المساء كانوا، على الأقل، اعتنوا بي.

سألت: وأبوك وأخوتك

قال: نعم... لا أفهم (بحدة وشحنة أيضاً) كيف يتركون طفلاً في الخامسة عند عجوز بحاجة هي إلى من يهتم بها. ثم سألني وهو ينظر إليَّ بعينيه الحزينتين: هل يُترك ولد في الخامسة في ظروف كهذه؟ قلت: أحسست نفسك مهملاً ومتروكاً من قبل أخوتك وأبيك بينما هم كانوا يستطيعون العناية بك؟

قال: نعم... نعم (بدون حماسة).

قلت: تفترض أنهم كان بامكانهم أن يحلوا محلّ أمك التي افتقدتها؟

قال: لا أعتقد أن مكان الأم يمكن أن يأخذه أحد... كلا (بلهجة منمطة ورتيبة مرة أخرى). ففي سن الخامسة عند دخول الولد إلى المدرسة، وعندما يبدأ بالتعرف إلى أترابه يكون بحاجة إلى أن تأخذه إلى هناك وتعود به وتوجهه... أما أنا فلم يكن لي أم.

سألت: متى ذهبت إلى المدرسة في بيروت؟

قال: عندما كنت في السادسة والنصف دخلت الاعدادي.

سألت: من كان يدرسك؟

قال: اخوتي.

سألت: من منهم بالتحديد؟

قال: كلهم كانوا يساعدونني في دروسي.

قلت: أخبرتني مرة أن الصغار كانوا «يتزانخون» عليك. هل كان أخوتك يدافعون عنك؟ قال: طبعاً... طبعاً. ولكن أنا كنت مهملاً لدراستي، وقد رسبت في التمهيدي. سألت: هل أن سكنك مع أهلك (أبيك وأخوتك) قد أشعرك بزوال وحدتك؟ قال: طبعاً... طبعاً.. ولكن ليس تماماً. **فالسنة التي قضيتها وحيداً هدمتني تماماً وقوضت شخصيتي ــ وأفقدتني حلقة مهمة في نمو شخصيتي.**

سألت: كيف تتصور انك ستعوض **غياب أمك؟**

قال: هذه قضية قديمة وأنا تخطيتها. هذا حدث وأنا صغير ولكن عندما كبرت (أي في حوالى العاشرة) بدأت ببناء نفسي على أسس جديدة.

سألت: ما هي هذه الأسس؟

قال: تعلمين إن الإنسان، قبل سن العشرين، يود أن يغير العالم، وفي الثلاثين يبدأ بتغيير نفسه. أنا كذلك أردت بناء حزب جديد أدعو إليه الناس. كان هذا عام ١٩٧٦ - ١٩٧٧ (ثم تكلم على أهمية الحزب في بناء الشخصية... كل رفاقه كانوا منتمين لأحزاب).

سألت: ما هي مبادىء هذا الحزب؟

قال: أولاً وحدة العالم، الاشتراكية، الإخاء، العروبة. هذه مبادىء مستقاة من الثورة الفرنسية والثورات العربية، وقد أضفت ملحقاً في العلاقات الإنسانية، ثم تخليت عنه.

هذا الملحق ينظّم العلاقات الجنسية بين البشر ويسمح بها بين القربى من النساء والرجال.

وهو يرى أن هذا الملحق مظهر من مظاهر تراجعه إلى الطفولة. هو يوافق فرويد في نظريته التي تقول إن الفرد الراشد حينما يصطدم بعقوبات وصعوبات في حياته يتراجع إلى مراحل سابقة في طفولته تتسم بتعلق الطفل بذويه وأقاربه ويود لو يقيم علاقات عاطفية معهم. أي الجنسية «المثالية».

سألته: هل تقصد علاقات جنسية بين فردين من الجنس نفسه؟

أجاب: كلا... انني قد فهمته بشكل خاطىء. هو يقصد العلاقة الاثمية المحرمة بين الأقرباء... هي أفكار تخريفية (يتكلم بهزء واحتقار) إذ لا يمكن بناء أي مجتمع أو حضارة على أساس علاقات كهذه.

هو على أية حال لم يمارس هذه العلاقات لكنها بقيت في تفكيره وتخيّله.

سألت: ماذا كان يرافق هذه الأفكار... اللذة؟ أم ماذا؟

أجاب (محرجاً ومستعجلاً لانهاء الموضوع): بعض الشعور بالذنب. هذا حدث عندما كنت طائشاً ولا أفهم شيئاً. ولو كانت عندي علاقة عاطفية طبيعية لما حدث هذا الشيء، أي لما اضطررت لأن أتراجع إلى أهلي وأقاربي وأعود إلى طفولتي وانكفئ فيها... على كل حال هذه مرحلة انتهت... ما أهميتها الآن (بانزعاج)؟ لم تعد تأخذ حيزاً من تفكيري. في رأسي الآن أفكار أهم.

سألته: ما هي؟

قال: أود أن أعود إلى الجامعة وأتابع دراستي وأتخرج بعد أربع سنوات محامياً أو قاضياً... لست أدري.

المقابلة السادسة: السبت ٢٣ أيار

أتى حيدر لابساً ثياباً للمرة الأولى (جينز + قميص وكنزة) بدل البيجاما. بدت عيناه غائمتين غاب عنهما الصفاء مرة ثانية. جلسنا في الصالون الملحق الصغير، وتعمدت هذه المرة أن أجلس قبالته على مسافة أبعد مما في المرة الماضية، ووضعت بيننا طاولة صغيرة فيما جلس هو أقرب إلى الباب مني أنا.

سألته، بعد السلام، عن حاله.

استرسل في الكلام بشكل يشبه المرتين الأوليين، دون توقف، وبلهجة غاضبة وصوت مرتفع، وعادت يداه إلى الارتجاف وإن بدرجة أقل من المرتين الأوليين. وعاد إلى لهجته الرتيبة ذاتها.

قال إن وضعه عال(*)، وان وجوده في المستشفى لم يعد ضرورياً وهو لا يرى سبباً لبقائه أبداً. فهو قد أتى ليستشفي. يداه كانتا محروقتين (يشير إلى الحساسية) وأعصابه كانت متعبة. كان متوتراً نفسياً وعصبياً، فأتى إلى المستشفى والآن أصبح بحالة جيدة. هو طبيعي الآن. وهذه مستشفى للمجانين وليست له. هذه مستشفى سيئة.

سألته أن يفصّل أكثر.

قال انها مستشفى سيئة على كل الأصعدة. الأكل، والمعاملة مهينة. يعاملون المرضى كالحيوانات. لا يعاملون الفرد كما يجب. هي ليست كالعصفورية ودير الصليب مثلاً(**). فتلك مؤسسات حكومية بينما هذه تعتمد على الاحسان من الاعانات التي تأتي من (يسمّي بلداً عربياً) ومن (يسمّي زعيماً لبنانياً) وهم ـ الإدارة ـ «يبلعون المصاري»(***) بدل ان ينفقوها على المرضى.

إن بقاءه في المستشفى، وهو إنسان طبيعي وليس مجنوناً يصمه اجتماعياً. ماذا يقول الناس عنه عندما يخرج ويعرفون انه كان في مستشفى مجانين؟ أين مستقبله وحياته وآماله؟ هذا يحدد كيانه. كل هذه ستنهار وينهار معها كيانه.

وأضاف أن عدم السماح له بالخروج من المستشفى ظلم من ادارة المستشفى، أو هو على الأقل اهمال، وهو اهمال يحصل في إدارات العالم وخاصة الحكومية منها ـ ولكن هنا أكثر بكثير من غيرها، وهو ان لم يسمح له بالخروج غداً، فعندما يأتي أهله سيتأكد إذا كانت هناك **مؤامرة تحاك ضده** وضد عودته إلى العالم الخارجي لاكمال دراسته، هذه المؤامرة تحاك من قبل إدارة المستشفى المتعاونة مع الإسرائيليين الذين يتآمرون على لبنان ويودون القضاء عليه، وهو من بين اللبنانيين الذين سيقتلهم الإسرائيليون. إن هناك أموراً

(*) أي جيّد.

(**) مستشفيان لبنانيان للأمراض العصبية والعقلية كانا معروفين بحسن خدماتهما.

(***) كلمة بالعامية اللبنانية تعني المال أو النقود.

غريبة تجري هنا في محيط المستشفى، هناك حوالى ٥٠٠ عالم يجرون تجارب على الناس في المستشفى، وهو لديه دلائل على ذلك كما يستنتج ذلك من أمور عدة: كلمة من هنا وكلمة من هناك، كذلك فأصوات «المسجلة» لها دور.

سألته: ماذا يحاولون أن يفعلوا؟

أجاب: يحاولون أن يحولوني إلى «خنتايه»(*) (بصوت خافت)... ثم بصوت مرتفع غاضب ومرتجف ومتوعد:

«ولكنهم لن يستطيعوا ذلك أبداً. أنا أعلم أنهم لن يستطيعوا ذلك أبداً. أنا عشت هذه الحياة وأعرف نفسي جيداً وأعرف أن هذا ما ليس باستطاعتهم. أنا أقوى من ذلك. لو حاولوا ستبوء محاولتهم بالفشل. محاولاتهم بائسة.

سألته ما إذا كان يعتبر تحويله إلى أنثى تبخيساً له.

أجابني (بتعجب) ان ذلك يمس كرامته في الصميم «يحاولون تحطيمي بابقائي في المستشفى ولكنهم لن يفعلوا ذلك، وحتى لو بقيت هنا مليون سنة، مليار سنة أو حتى دورات زمنية عدة، فهم لن يتمكنوا مني. وكيف يستطيعون ذلك **وأنا أخلق نفسي مئات من المرات في اليوم بعد أن تضمحل**. نفسي تموت عدة مرات في اليوم وأعود فأبنيها». (وكأنه يفسر لي هذياناته).

سألته: لماذا برأيه يحاولون **أن يتآمروا عليه؟**

قال انها قصة قديمة تعود إلى سبب دخوله المستشفى آخر مرة، نتيجة خلافات غير مهمة مع الجيران ما لبثت أن تطورت، وكانت حول كتاباته الفكرية، **فهو مثقف وعنده تراث فكري** مهم من خلال قراءاته العديدة. وقد سمعت الحكومة من جيرانه بأفكاره حول المحرمات الاثمية فلم يعجبها الأمر فأرسلت جواسيسها وهو كان يلاحظهم في أماكن مختلفة، مثلاً عندما يكون على «عربيّة كتب»(**) يقرأ كتاباً معيناً يكون **هناك شخص يراقبه. وكان يسمع كلمات تقال هنا وهناك عنه**. والحكومة أيضاً تود أن تتخلص منه بسبب أفكاره الغريبة هذه مع أنه لم يعد يتبناها، ولكن الإنسان يُحاسَب

(*) بالعامية. وتعني خنثى بالفصحى.

(**) أي عربة يستعملها البائع المتجول، وقد درج في الحرب استعمالها لبيع الكتب.

طوال حياته ويُوصم على أمر فعله في وقت ما من عمره (يقولها بتعاسة وبغضب) ومع ذلك هو يود أن يشكو إدارة المستشفى التي تستبقيه هنا إلى الشرطة والحكومة.

وهو يسمع أشياء غريبة من المرضى تتنافى مع العقل، منها **نزول الله إلى الأرض وهذا سوف يتأكد هو منه عند خروجه من المستشفى**، ولكن هذا أمر لا يعنيه كثيراً نزل الله إلى الأرض أم لم ينزل. «ما لي ولله... على كل حال» ـ يرتفع صوته ـ **الأبحاث العلمية تدل على عدم وجود الله** وهو لا يأبه لأمره وُجد أم لم يوجد، ولن يلتفت إلى هذا الموضوع بل ينغمس في دروسه والتحضير لمستقبله.

المقابلة السابعة: الثلثاء ٢ حزيران (يونيو)

بدا لي حيدر منذ أن دخل أنه عاد إلى هدوئه وفاجأني بالسؤال عن صحتي وعن الأحوال الأمنية في الخارج. أجبته باقتضاب وسألته إذا كان يتابع الأخبار في الراديو. أجاب نعم وأنه يعلم باتفاق وقف إطلاق النار الأخير.

سألته عن حاله.

أجاب: بخير.

قلت له إني سأُريه لوحات مختلفة أرجو أن يخبرني قصة مستوحاة من كل واحدة منها. وكنت خلال سرده أطلب إليه حين يقتصر كلامه على الوصف أن يصف لماذا فعل الشخص الفلاني ذلك؟ بماذا يشعر هذا؟ أو بماذا يفكر ذلك؟... الخ.

لم أقدم كل لوحات رائز تبصّر المتون (الـ TAT)، فاكتفيت بـ ١١ منها، تلك التي توسمت فيها ما يثير تداعيات تمسّ النقاط المرضية والسوية عنده: العلاقة بأبيه وأخواته، وحدته كطفل، شعوره بالاضطهاد... الخ.

بدا خلال اجراء الرائز غير مرتاح اجمالاً. كان، كالعادة، يود أن يعطيني انطباعاً جيداً عن ثقافته فكان يرمي أسماء المشاهير يمنة ويسرة ويستعمل عبارات ومفاهيم تخدم هذا الهدف، إضافة، طبعاً، إلى تفادي المشاعر التي تثيرها فيه اللوحات. بدا كذلك حذراً، فكان يقلب اللوحة على وجهها الآخر ويقرأ ما في أسفلها (عنوان المؤسسة التي تصدر الرائز). وتذمر أكثر من مرة لأنه وضع في موقع يضطر معه لأن يلعب لعبة سخيفة كهذه، فهو يحتقر الخيال الذي هو «بدون فائدة» ترجى. كنت قلت له إن هذا الرائز

يقيس المقدرة على الخيال وذلك لدفعه إلى الاسترسال في الوصف. وفي بعض اللوحات كان ينهي كلامه باستعجال.

بعد الانتهاء من اجراء الرائز أخبرني أن أخاه زاره يوم الأحد وانه وعده بأنه سيخرجه يوم الجمعة القادم، وهو مرتاح كثيراً لذلك ـ بدا لي فعلاً مرتاحاً ـ وانه سيعود لحياته الطبيعية وذلك سيتم باذن الله **فالله غير ظالم** وهو يحب عباده ويعتني بهم. الظلم ليس من شيم الأرواح السامية... الخ. قلت هذا جيد وانني سأعود السبت لأراه. تنبهت إلى انه قال انه سيخرج الجمعة! وقلت له ذلك، فبادر إلى طمأنتي بأن أخاه ربما أتى الأحد وإذا أتيت السبت فسأجده لا بد (قالها بحماسة).

ودعته، **فسار معي حتى الباب** للمرة الأولى وودعني، وطلب إلى الرجل المسؤول أن يفتح لي الباب كأي «جنتلمان»!

المقابلة الثامنة (الأخيرة): الاثنين ٨ حزيران

كان حيدر في الجوار عندما طلبت من الممرض أن يدعوه. دخلت الصالون فحضر لتوّه وهو يحمل دفتراً بيده، وتكلم بسرعة وسألني عن حالي والوضع الأمني في الخارج. قلت له إن الوضع في الخارج يتحسن. قال بلهجته الرتيبة: لا بد أن تنفرج ويمشي الحال.

كان الحديث في البداية متعثراً. فقد بدا متحفظاً في الكلام أكثر مما في المرات السابقة وغير راغب فيه. وقد نجحت في عدم قطع حبل السكوت فلم أبادر إلى سؤاله في شيء بل انتظرت بهدوء، دون اصرار.

في الفترة الأولى من الجلسة تحدث عن **إيمانه بالله والاتكال عليه**. وانهما سيشفيانه ويعيدانه إلى حالته الطبيعية، وان الإيمان ضروري وواقع وهو مقياس الشفاء ومحك للحالة الطبيعية عند الإنسان.

سألني إذا «طلع في الفحص(*) انه طبيعي»؟

(*) أي: ظهر في نتائج الفحوصات، وتستخدم عادة للفحوصات الطبية.

أجبت أن مهمة الرائز ليست ذلك. وانما فقط اظهار دينامية الشخصية وأوجه علاقاتها مع أفراد العائلة والمحيط.

بدا مستعجلاً إقفال الموضوع وكان يقاطعني خلال التفسير معتذراً، من جهة، ومتنازلاً عن طلبه من جهة ثانية، وكأن الكلام في أي موضوع يضطره لاستيعاب مواقف جديدة لا يرغب في استيعابها.

أخبرني أن أهله ـ أخوته ـ أتوا البارحة وانهم سيخرجونه من المستشفى في الأسبوع القادم، وانهم لم يتمكنوا من أن يخرجوه هذه المرة لأن الطبيب لم يكن موجوداً هنا ـ هو قلما كان موجوداً ـ **ولكن هذه مجرد حجة** (يرتفع صوته) **فهم يستطيعون الاتصال به إذا أرادوا** (بصوت منخفض) ولكن هذا غير مهم فهو سيخرج من المستشفى ويعود إلى حياته الطبيعية.

قال انه، أصلاً، **طبيعي**، وان وجوده في المستشفى غير ضروري. ولكن وضعه قد تدهور منذ عام ١٩٧٧ حيث كان عمره ١٨ سنة. كان شاباً صغيراً لا يستطيع «إدارة نفسه» وقد ذهب إلى الطبيب في عيادته في شارع الحمرا للاستشارة، فما كان منه إلا أن أرسله إلى المستشفى وأعطاه أدوية. هذا لا يجوز. لم يتصرف كطبيب. ليس هكذا يتصرف الطبيب النفساني. في البلدان المتحضرة، أوروبا وأميركا، **الطبيب النفساني يحاور المريض**، يطرح عليه أسئلة حول مشاكله، حول ما يحب وما يكره، **وبعد ذلك يفهم عقده واحدة واحدة** ويحلّلها ويتم ذلك خلال عدة جلسات يشفى بعدها المريض شفاءً تاماً، أما هنا فإن «وضعي يزداد سوءاً. الطبيب أخذ نقودنا. دفعنا كثيراً. ولكنه لم يتحمل مسؤوليته تجاهنا كطبيب بل تركني هنا في هذا السجن، مع اننا نحن قمنا بواجباتنا المالية».

حاولت ان «أصحح» له معلوماته ولكن عبثاً. كان مندفعاً في الكلام وكأنه يتكلم مع نفسه ولا يود سماع معلومات مختلفة عما يعرفه تهدّد بالتالي الصورة المتماسكة لما يعرفه. **تخليت بسرعة عن موقفي وعدت للاستماع والهمهمة.**

بدا حاقداً وغاضباً عند الكلام عن الطبيب، وأنا حاولت أن أتعرف على مشاعره، قلت: أنت حاقد على الطبيب؟

قال: لا، وماذا يفيد الحقد؟

قلت: غاضبٌ منه لأنه لم يحاول أن يشفيك؟

قال: لا، وماذا يفيد الغضب؟ لا لست غاضباً. **ماذا تفيد كل هذه المشاعر؟ العقل هو المهم.**

قلت: ترى أن المشاعر غير مهمة وان العقل هو المهم.

قال: طبعاً، العقل وسيادته هما مقياس الصحة. ويصبح الفرد طبيعياً عندما يحكّم عقله، أما المشاعر ـ قالها باحتقار حيادي ـ فهي ليست مهمة.

سألته إذا كان يعتقد أن طبيباً نفسانياً يستطيع مساعدته أكثر من هذا...

قال انه تخطى هذه المرحلة. كان ذلك عندما كان صغيراً ـ سن الـ ١٩ ـ وهو الآن في الـ ٢٥. أصبح راشداً ويستطيع الآن أن يساعد نفسه بنفسه. هو ليس بحاجة لا لطبيب نفسي ولا لإرشاد نفسيّ (قدمت نفسي له في بداية مقابلاتنا بأنني أحضر نفسي لأصبح مرشدة نفسية). على كل لم يعد ينفع معه شيء فهو قد «فرط»(*) نفسياً. تجربته «طحنته طحناً».

سألته أن يوضح.

قال: يعني قولبته على جميع الأصعدة.

(سكوت)

ثم قال ان نظره قد شحّ اجمالاً لأن نظاراته في البيت وهو قصير النظر (٧ درجات) وان عينه اليسرى باتت تؤلمه لأنه يضطر أن «يشخّص» كثيراً كي يرى. وقد أصبح كذلك لكثرة ما يقرأ. هو قضى عمره يقرأ، ويخاف أن يفقد نظره، «لأن الإنسان بلا نظر غير نافع». وهو عندما يقرأ الآن يضطر لأن يقرّب الورقة من عينيه مما يزيد في اضعافهما، ويود لو أن أهله يرسلون له نظارته.

ثم يستطرد انه إضافة إلى ضعفه العصبي كان يشكو الانكفاء إلى العزلة وشراسة الطباع. هذه أمور تخطاها ولا يجدي الكلام فيها وهو **يود أن ينساها ويعتبر أن نسيانها هو الطريق الصائب للشفاء.**

(*) أي انهار.

لذلك، فهو عندما تأتيه أفكار عن تلك المرحلة (أي عندما كان شرساً وسيء الطباع) يطرد هذه الأفكار لأن تذكّرها لا يجدي نفعاً. وهذه هي إجمالاً طريقة للتوصُّل إلى المرحلة الطبيعية. نسيان الحوادث الماضية والالتفات إلى الحاضر والمستقبل.

وهو قد مرّ منذ حوالى ستة أسابيع بمرحلة كان فيها ضائعاً.

قلت له إني قد رأيته في تلك الآونة فهل يذكر شيئاً منها؟

قال إنه يتذكر أنه كان يقول أشياء مستحيلة.

سألته: هل تتذكر بالتحديد ما هي؟

قال (بسرعة كان يود انهاء هذا الحديث) انها أمور تتعلق بالله وبنزوله على الأرض.

سألته عن موقفه الآن من هذا؟

فقال انه لا يفكر فيه، وان الكوابيس والأفكار تأتيه أقل بكثير من السابق وموقفه منها موقف من لا يصدق ولا يلتفت إليها. وهو يرى أن المستشفى والمرضى ساهموا في اعطائه هذه الأفكار. فهناك من يقول انه المهدي وثلاثة يقولون انهم المسيح ومما يثبت ان ما يقولونه خاطىء كون المهدي لن يظهر إلا في الكعبة والمسيح إلا في السماء، والمستشفى ليس أي واحد من هذين المكانين.

ولكن على كل حال، المرضى يتحسنون وهو يعتقد أن موقع المستشفى ما زال يتحسن وكذلك المستشفى يحسنونها ويبنون فيها أجنحة جديدة كالذي نحن فيه.

سألته إذا كان يمانع في اعطائي واحدة من وريقاته التي كان يكتبها.

قال: على العكس... وبدا متحمساً، فمزق ورقة واعطاني إياها لأقرأها.

ودّعته وانصرفت. قام هذه المرة أيضاً إلى الباب ليودعني كالمرة السابقة.

ثانياً ـ دراسة الحالة

I ـ المظاهر المرضية في الشكل الخارجي والخطاب والسلوك:

أ ـ حيدر شاب في الرابعة والعشرين، نحيل القامة، صغير الحجم، عيناه واسعتان سوداوان يكاد المرء لا يرى في وجهه سواهما. عضلات وجهه مشدودة إلى أسفل.

كتفاه مقوستان ومحدودب الظهر قليلاً وكأنه رجل هرم، خاصة إذا ما شوهد من الخلف. يمشي وكأنه يُدفع دفعاً إلى ذلك يكاد لا يلتفت حوله مطلقاً وكأنه مربوط بالأسلاك التي تُربط بها الدمى المتحركة. وسخ الملابس اجمالاً. في جسمه طفرة لونها زهري بنتيجة تناوله دواء سبّب له حساسية مفرطة. يجلس بشكل قلق وجسمه مائل إلى الأمام. أحياناً يكون قلقاً من أن يكون شق بيجامته مفتوحاً.

يتكلم بسرعة وبلهجة إما رتيبة، إذا كان يردد أشياء ممضوغة قالها سابقاً، أو غاضبة وبصوت عال ينتفض معه جسمه انتفاضاً. أحياناً يتكلم وكأنه طفل صغير يشكو أمره بلحن رتيب.

ب ـ تتناول هلوساته سلطات عليا وتشمل الله الذي رآه في المستشفى تحت الطاولة وكذلك على شكل اشعاعات من بروجكتورات كهربائية (المقابلة الأولى) ور.أ. (الشخصية العسكرية والسياسية الاقليمية)، وأباه وأخوته وهم من نزلاء المستشفى (للتجسس عليه).

كذلك رأى آدم الذي نزل على الأرض يدمر المستشفى ويأكل ما فيها (المقابلة الثانية). هذه كلها تندرج في الهلوسات.

ج ـ يرى حيدر انه يمتلك:

١ ـ مقدرات خارقة تمكّنه من رؤية ما لا يستطيع الناس ممن حوله أن يروه، وأن له مقدرة على تحريك الأشياء لتتداخل ببعضها (المقابلة الثانية)، مما حدا بالعلماء أن يحتشدوا (عددهم ٥٠٠) ليدرسوا دماغه.

٢ ـ مقدراته الفكرية والثقافية الكبيرة التي كان من نتاجها كتابته حول إعادة تنظيم العالم وإنشاء حزب سياسي، وكذلك وضع ملحق حول إعادة تنظيم العلاقات العاطفية بين الناس (المقابلة الخامسة).

٣ ـ الشعور بالمقدرة على تفتيت جسده وخلقه مرة ثانية مرات عديدة في اليوم (المقابلة السادسة).

هذه كلها تندرج في الهذيانات العُظاميّة (paranoid).

د ـ يعتقد حيدر ان سلطة ما تتخذ أشكالاً مختلفة تتآمر عليه:

١ ـ ر.أ. الذي يحاول أن يقتله بعد أن قتل أخوته وأباه (عاد الله فأحياهم) لأنه يعادي الله ولأنه تنبأ بأن الكتائب سوف تهجم على «القوى الوطنية» (المقابلة الثانية).

٢ ـ ٥٠٠ عالم يغسلون دماغه في محاولة لدراسة مقدراته (المقابلة الثانية).

٣ ـ إدارة المستشفى التي تحاول أن تفتت جسده وتفقده رجولته بالحامض وغير ذلك (المقابلة الثانية)، وان تحوله إلى «خنثاية» (المقابلة السادسة)، وتتآمر عليه كي لا يخرج من المستشفى.

٤ ـ المرضى والممرضون يهينونه ويضربونه ويعاملونه كحيوان ويمعسونه... (المقابلة الثانية والثالثة).

٥ ـ الجيران الذين يعملون جواسيس للحكومة وغيرهم من الجواسيس الذين يحاولون التخلص منه بسبب أفكاره الغريبة عن العلاقات الجنسية الآثمة بين الأقارب (المقابلة السادسة).

٦ ـ الطبيب النفسي الذي تآمر عليه شخصياً وأرسله إلى المستشفى بينما هو طبيعي، ووضعه هنا بين المجانين جعل حاله تزداد سوءاً كل يوم (المقابلة الثامنة).

هذه كلها تندرج في الهذيانات الاضطهادية.

هـ ـ مظاهر أخرى:

١ ـ الزمن: يبدو أحياناً مفهومه للزمن غير واقعي. فمثلا يقول «انهم (أي إدارة المستشفى) لن يتمكنوا مني حتى بعد مئات السنين أو مليارات السنين...».

٢ ـ وعي التناقض: يكاد يكون معدوماً في أكثر الأحيان. إذ يخترق حديثه أفكار متساوقة ومتناقضة للموضوع ذاته وكذلك بالنسبة لمواقفه ومشاعره. والأمثلة كثيرة:

ـ الله عادل... الله ظالم (المقابلة الأولى).

ـ غياب أمه حطمه نهائياً... هو تخطى هذه المسألة (أي غياب أمه) منذ زمن.

ـ الحكومة تتجسس عليه بواسطة أفراد معينين... سوف يشكو هؤلاء الأفراد إلى الحكومة.

ـ ر.أ. قتل أهله قصاصاً له على معاداة الله... الله عاد فأحياهم من جديد (مع انه لا يعترف حتى بوجوده).

٣ ـ خلو حياته تماماً من البهجة، أو هكذا وصفها. كلامه يخيم عليه المقت الشديد. لم يبتسم خلال الجلسات الثماني مرة واحدة.

٤ ـ شعوره باقتراب نهاية العالم، ففساد البشر بعد حرب نووية، ومن تبقى من البشر سينقذهم الله بعد نزوله إلى الأرض.

II ـ تجربة حيدر الوجودية:

بدا حيدر، في المرحلة الزمنية التي جرت فيها المقابلات، في صراع مع المرض شبه يائس وغير مجد، بنظره هو. ينتابه ذعر كبير من أن «يوصم» أو أن ينتمي إلى فئة «المجانين» كما يدعوهم، ولكنه يلاحظ، مذعوراً، انزلاقه إلى هذا العالم وتخبّطه في مواقفه بين الاستسلام للمرض وبين الرغبة في الشفاء.

ويعبر عن تجربته الذاتية في المرض بهلوساته وهذياناته والأفكار القهرية التي تلاحقه، إضافة إلى عدائيته وأفعال جنسية (لم تتوضح فعلاً لأنه كان يمر بذكرها سريعاً وكان ينزعج جداً من ذلك)، إضافة إلى شعور بالفشل العميق في تحقيق ذاته على كل الأصعدة: العاطفية والاجتماعية وخاصة الأكاديمية التي مني فيها بفشل متكرر بدأ برسوبه في الصف التمهيدي وتلاحق في مراحل تالية يذكر منها «البروفيه» جيداً لما سببت له المسألة من تعاسة.

هناك شعور بالعجز التام تجاه العالم الخارجي القاسي المتآمر عليه، يقابله شعور بالمقدرة والسيطرة الخارقتين على المستويين الفكري والحسي. إلا أن لهجته في الكلام على شعوره العاجز أوضح وتنضح بالألم أو الغضب الذي يؤدي بجسمه أحياناً إلى الانتفاض. أما الكلام على العظمة والمقدرة الكلية فخجول ومرتبك، وقلما، وهو ينطقه، يملك الثقة ذاتها التي يملكها عند الكلام على عجزه.

يصف حيدر علاقته بأهله على انها علاقة طبيعية وعادية كأية علاقة بين ابن وأبيه أو بين أخ وأخوته، هم يحبونه كما يجب ويؤدون واجبهم تجاهه. يتعرض لهم بقليل من اللوم أحياناً. علاقته بالله متجاذبة بما يطول إلى وجوده أو صفاته، وعلاقته بالناس محدودة جداً وسطحية بسبب انطوائيته ولاتكيّفه. علاقته بالمرأة معدومة بسبب غياب علاقة سوية مع أمه في مرحلة يعتبرها مهمة من حياته.

ويتبنى حيدر تأويلاً لأصول مرضه يردده بشكل ينم عن أنه نهائي لا يقبل التعديل،

ولا يمكن، تالياً، تخطي نتائجه أو تصحيح مساره. هو تبرير ضروري وكاف لثبات المرض ولاستبعاد خيارات أخرى بديلة. هذا التأويل هو التالي: إن موت أمه في سنته الثانية، ثم موت بديلتها ـ عمته ـ في سنته الخامسة وعدم استبدال هذه الأخيرة بواحدة ثانية هو السبب في مرضه. ان «الطفل» في مرحلة ما بين خمس وسبع سنوات بحاجة إلى معين يساعده في «الهجوم» على المجتمع، الذي يأخذ في البداية شكل المدرسة، وهو لم يستطع تحمل «الصدمات» التي تعرض لها هناك. ان الشرع وعلم النفس يجتمعان في تقدير أهمية وجود الأم في هذه المرحلة إذ في غيابها «يُحطم الفرد»، ولما شب وقرر أن يأخذ زمام أموره بنفسه حدثت له حادثة «وصمته» في سن العاشرة ـ تبعها رسوبه في الشهادة الاعدادية ـ في سن الرابعة عشرة. ثم حادثة عدوانية ـ في سن السابعة عشرة... وكانت هذه الحوادث تقع في الوقت الذي يكون قد قرر فيه «بناء شخصيته» وتقويمها. وهو حالياً يود الخروج من المستشفى ليعيد «بناء شخصيته» مرة ثانية.

ومظاهر السواء هي، في رأي حيدر، استبعاد الأفكار الهذيانية والتخيلات وقهرها وعدم الكلام فيها أصلاً، ومصالحته مع الله، وتمكنه من اكمال دراسته بعد خروجه من المستشفى، وتحكيم العقل على المشاعر.

أما الانتقال من المرض إلى السواء فيتم بالعلاج النفساني خارج المستشفى، أو بالتأكيد بأنه ليس مريضاً أصلاً وان وضعه طبيعي الخ. (بحسب المقابلة). وفي أحيان أخرى يردد أن لا مجال لشفائه ويرى انه «انتهى» أو انه لم يعد له أمل...

III ــ محاولة لتحديد الدوافع المحركة وتحليل أصول المظاهر المرضية عند حيدر:

ننطلق في محاولتنا هذه من تجربة حيدر الوجودية. ففي تحليله هو للأسباب العميقة للاتكيّفه الاجتماعي، وبالتالي لمرضه، يرى حيدر أن للفترة التي عاشها ما بين سن الخامسة والسادسة والنصف الأثر الرئيسي في ذلك. فهو أحس خلال هذه الفترة «بالوحدة» و«الفراغ» وذلك لأن أباه وأخوته تركوه في الضيعة (القرية) عند جدته العاجزة بدل أن يأخذوه معهم إلى بيروت. إن شحنة توقه لأن يكون سوياً يعادلها، برأينا، شحنة من العدائية تجاه من كان يفترض فيه أن يملأ هذا الفراغ ويزيل تلك الوحدة. نقصد بذلك أمه وعمته اللتين ماتتا وتركتاه الواحدة بعد الأخرى. وكذلك أباه وأخوته من بعدهما.

إن حيدر لم يتعرض لهؤلاء بأي تعبير عدائي على رغم أسئلتي المباشرة إلا أن بعض اللوم لأبيه وأخوته قد طفا على السطح (المقابلة الخامسة والمقابلة الثامنة).

وأهمية هذا اللوم ناجمة عن أنه ما لبث أن ألحقه بتبرير لتقصيرهم في الحالتين اللتين ذكرنا. ونعتبر أن التبرير هذا تعبير عن شعور بالذنب تجاه افلات مظهر عدائي بسيط كهذا، ما يُكسب العدائية بالتالي أهمية يحاول حيدر جاهداً أن ينكرها. هكذا ظهرت طرق بديلة وملتوية للتعبير عن نفسها وذلك في هلوساته وهذياناته لأن الاعتراف بها يثير مشاعر وأفكاراً أليمة تترابط بها كما سنرى لاحقاً.

لذلك، نحن نفترض أن **الكبت** قد فعل فعله هنا بالذات، أي ان موضع الكبت هو مشاعره عامة وعدائيته، خاصة تجاه أبيه وأخوته وأمه وعمته (بديلتها). ومن هنا فإن موضوع هلوساته وهذياناته وأعراضه المرضية اجمالاً هو المشاعر عينها والأفكار التي تتمحور حولها.

إن «الفراغ» و«الوحدة» اللذين أحس بهما حيدر ويتذكر وقعهما عليه حتى الآن، هما ما هما عليه قياساً بـ «الامتلاء» و«اللاوحدة» السابقين. وإذا كان الزمن الأخير، بالنسبة لحيدر، عصراً ذهبياً وجد فيه حباً وحماية وربما أيضاً غواية جنسية، هوامية أو فعلية، من قبل عمته العانس التي خلفت أمه في تربيته، فإن تلك المرحلة شكلت نواة لرغبته الآثمة التي عبر عنها في مقالته، أو في ملحق «لتنظيم العلاقات الإنسانية» وإعادة تنظيم العالم كله. فإعادة ترتيب العالم ليصبح «مدينة فاضلة» أو قريباً من «الجنة المفقودة» هي استعادة لعصره الذهبي هو الذي ذكرنا والذي سادت فيه علاقات (أو رغبات في علاقات) آثمة. وإعادة تنظيمه العلاقات هذه وأفكاره حولها هي مثار اعتزازه (أفكاره العُظامية): فهو يعتبر أنه بتحقيقها حقق عملاً فكرياً مهماً، يجعله بالتالي رجلاً مهماً، كما كان في ذلك الوقت طفلاً مهماً، محبوباً ومشتهى (بدل أن يكون متروكاً ومهملاً كما حصل لاحقاً).

إلا أن هذه الرغبات الإثمية تخدم غرضاً آخر. فهي، إضافة إلى قيمتها الايروسية الصرفة، موجهة ضد أبيه وإخوته. فأمه وعمته هما، وفي القوانين التي ابتدعها هو لتنظيمه الجديد، موضوع عاطفي وجنسي لأبيه وإخوته.

لذلك فإن وضعهما ـ أي أمه وعمته ـ في موقع مواضيعه العاطفية يُشكل عدائية مقنعة

ضد أبيه وأخوته كما في الشتيمة المعروفة وذلك تعبيراً عن غيظه وغضبه ضد أهله الهاجرين التاركين... الخ.

إن ما يجعل لكتابته حول المحرمات الآثمة أهمية (سواء حصلت فعلاً أم بقيت في ذهنه) في فهمنا لدينامية شخصيته، كونها تكررت غير مرة في حديثه خلال المقابلات. وقد تبع الحديث عنها في كل الأحوال ردة فعل تلغي ما قيل أو تبخس ذاته في محاولة للتقليل من أهميتها (المقابلة الثانية)، وهذا نموذج لنمط تعامله مع أفكاره ومشاعره ومواقفه عامة: يقدم الواحد منها ثم يلغيه مباشرة بعد ذلك وبأشكال مختلفة.

نعود الآن مرة أخرى إلى «الفراغ» و«الوحدة» اللتين عاناهما حيدر في تلك الفترة من حياته التي يعتبرها أساسية في قولبة شخصيته نهائياً، ونسأل: هل كان حيدر وقتها وحيداً فعلاً؟ هل كانت حياته فارغة؟

يرى فرويد ان الليبيدو يمر في نموه بمرحلة وجيزة ما بين الايروسية الذاتية والموضوع العاطفي أطلق عليها اسم «النرجسية»، حيث تصبح الذات ممثلة بالجسم كله هي الموضوع العاطفي. وقد تكون الأعضاء التناسلية هي الأهم في هذه الذات وبالتالي تكون هي الموضوع العاطفي. هكذا فإن النمو اللاحق لهذا التيار الليبيدي يفترض أن يختار موضوعاً عاطفياً خارجياً على شاكلته تماماً، وله طبعاً الأعضاء التناسلية نفسها، أي أنه يتخذ موضوعاً جنسياً مثلياً (homosexual). إلا أن النزعات الليبيدية هذه تتسامى وتأخذ أشكالاً مختلفة منها حب الإنسانية والصداقات مع الجنس الواحد القريبة... الخ.

أما في حال تشبث الليبيدو في مرحلة النرجسية، فإن تعرض الفرد لاحباط من العالم الخارجي يؤدي بالليبيدو إلى نكوص إلى مراكز تشبثه السابقة أي إلى الجنسية المثلية المعلنة أو الكامنة، إذا كان التشبث السابق قد رافقه الكبت في الحالة الثانية يأخذ المرض شكل العُظام.

ما هي مرتكزات تبني تحليل فرويد(*) هنا؟

المرتكز الأول: مظاهر من الجنسية المثلية «المعلنة» والكامنة

يروي حيدر بشكل غائم، حادثة انه تعدى على واحد من أبناء عمه تعدياً وصمه

(*) نستند هنا إلى دراسة فرويد «ملاحظات حول حالة بارانويا» المعروفة بحالة «الرئيس شريبر» حيث يرصد أوالية البارانويا.

طوال حياته (المقابلة الثالثة). ونحن افترضنا أن التعدي هذا هو جنسي بسبب الكلام على «الوصمة». هذا اذن، تعبير مباشر عن رغبة جنسية مثلية وعودة للمكبوت بشكل صريح إذ يؤرخ حيدر لانفجار مرضه بها.

أما من جهة أخرى فإن تحليل بعض هذاياناته الاضطهادية يدل على رغبات جنسية مثلية مكبوتة.

ففي المقابلة الثانية يقول حيدر انهم ـ أي إدارة المستشفى ـ يتآمرون على رجولته ويريدون اخصاءه باطعامه الليمون الذي له هذا التأثير.

وفي المقابلة السادسة تحاول إدارة المستشفى كذلك تحويله إلى «خنتايه».

إن الهذيان الاضطهادي هو اسقاط رغبات دفينة على الآخر لا يجرؤ صاحبها، بفعل الكبت، على الجهر بها. والهذيان هنا هو طرف سلسلة تكونت حلقاتها من أفكار مترابطة بعمليات دفاع أولية (القلب إلى الضدّ، الانكار... الخ)، وفي آخر هذه السلسلة ينغرس في «اللاوعي» رغبة ذات طابع ايروسي أو عدواني أو من الاثنين معاً، على الأرجح.

هنا تصبح السلسلة على الشكل التالي:

في اللاوعي: ليتني كنت «خنتاية»، مخصيًّا.

تتحول في الوعي، بعد الانكار، إلى: لا أريد ذلك مطلقاً، فهو مهين لكرامتي.

ثم تتحول، بعد الاسقاط على المواضيع الواقعية للرغبة أو بدائلها، أي: هم «يتآمرون» عليّ ويريدون أن يخصوني أو يجعلوني «خنتاية».

نفترض اذن أن الاسقاط الذي تم هو دليل على وجود رغبة كامنة في تحول حيدر إلى انثى. ولكن لماذا؟

ان في تحقيق خصائه تعبيراً مقنعاً عن رغبته في أن يكون موضوعاً جنسياً لرجل، أي عن رغباته الجنسية المثلية الكامنة. أما لماذا أخذت هذه الرغبات شكلاً سلبياً ولم تكن عكس ذلك فما لا نملك عليه دليلاً فعلياً. نفترض، مرة أخرى، أنه إذا ما تحقق خصاؤه فإنه بذلك يصبح «ابنة» أبيه، أي بحكم قوانينه التي ابتدعها هو (التي ذكرناها آنفاً)

موضوع أبيه العاطفي، ويحصل بالتالي على محبته، ومحبة أخوته ويستطيع من هذا الموقع أن «يُغريهم» لأن يأخذوه معهم إلى بيروت بدل أن يتركوه وينبذوه في الضيعة.

وإذا كان ما يحصل **الآن وهنا** هو تكرار لما حصل في الماضي فإن ما يحاول حيدر أن يحققه بتحقيق خصائه هو مخاطبة أهله بقوله: «خذوني من هنا (أي من المستشفى) مقابل رجولتي (أي لن أعتدي على أحد جنسياً أو غير ذلك)، ولا تهملوني كما فعلتم في الماضي».

أما المرتكز الثاني لتبني تحليل فرويد فهو التالي: ان الفراغ والوحدة اللذين عانى حيدر منهما كان توقيتهما في حوالى الفترة التي يتم فيها اختيار الموضوع العاطفي الحقيقي والواقعي. وقد بدا العالم بالنسبة له فارغاً بشكل صاعق بسبب غياب كل أفراد العائلة دفعة واحدة. وقد يكون قد تم نتيجة لذلك تشبث الليبيدو بالذات التي تضخمت لتملأ عالمه كله. وتشكلت بالتالي القابلية لبنية ذاته النفسية للجنسية المثلية الكامنة أو المعلنة، التي تؤدي في حال انفجار المرض (عودة المكبوت) إلى العُظام.

هكذا يتبين لنا من خلال تحليل بعض هذيانات حيدر انها اسقاط لرغباته الآثمة والمنحرفة على مواضيع هذه الرغبات. وهذه الهذيانات ذاتها متضافرة مع أخرى غيرها (كما سنرى لاحقاً) تمثل، كذلك، اسقاطات لمشاعر الذنب تجاه هذه الرغبات. ان مصدر هذه المشاعر هو «الأنا الأعلى» القاسي والمهدد لدرجة كبيرة لا تستطيع معه «أنا» حيدر أن تكامل بين متطلباته ومتطلبات «الهو» فتسقط هذا التهديد إلى الخارج ـ كما أسقطت كذلك رغبات «الهو» ليبدو وكأنه ناتج عن «سلطات عليا» خارجية بدل «السلطات العليا» «الأنا الأعلى» الداخلية، أي من الحكومة وجواسيسها، ومن ر.أ وعائلته، والجيران، والطبيب النفسي وإدارة المستشفى، وأخيراً الله...

إن السلطات العليا الخارجية هي بدائل متنوعة للسلطة الأساسية: الأب. وهذه السلطات (أو الأب) تود عقابه على أفكاره الإثمية ـ هكذا بوضوح ـ (المقابلة السادسة، المقابلة الثانية) وعلى رغباته المنحرفة باخصائه أي بحرمانه عضوه الذكري الذي يمارس بواسطته علاقته الآثمة: **ها هنا سيناريو أوديبي واضح**. إلا أن هذيان حيدر الاضطهادي من السلطة وبدائلها هو كذلك اسقاط لمشاعر عدائية تجاه السلطة المركزية (الأب القاسي المتخلي، المهدد بالخصاء...)، وهي عدائية لم تجد، كما قلنا، تعبيراً مباشراً لنفسها بل كُبتت وأُلغيت تماماً من التداول التعبيري. وعدائية كهذه تُرفض من قبل «أناه الأعلى»

قد توجّه إلى الذات في محاولة قصاص ذاتي (الانتحار مثلاً)، أو في اسقاط هذه العدائية إلى الخارج ـ أوالية دفاع ضدها. فلو أخذنا مثلاً هذه الفكرة الهذيانية: «ان إدارة المستشفى تحاول تفتيت جسده»، فإنها تقع في نهاية السلسلة التالية المترابطة من الأفكار:

في اللاوعي: أكرههم كثيراً لأنهم لا يحبونني وأود أن أقتلهم.

ترتد وتتحول تحت وطأة الشعور بالذنب إلى: يجب أن أقتل نفسي على أفكار كهذه وأفتتها لأفتّت حدة عدائي.

تُدرك في الوعي بعد الاسقاط «عليهم» انهم يحاولون تفتيت جسدي.

والأرجح أن السلسلة هذه تبدأ بفكرة أسبق. هي «أحبهم حباً عظيماً». إلا أن هذا الحب هو بدائي وطفولي وغرضي بمعنى أنه يفترض نفسه موضوع حب غير مشروط ودائم وهو بالتالي حب لا يمكن اشباعه بل سيتعرض حكماً للصد والاحباط وينقلب تالياً إلى كره للغرض ذاته غير محتمل لأنه يحمل إزاحة شحنة الحب المذكور، فيُسقط على موضوع الحب نفسه كما رأينا.

أين موقع أمه في كل هذا؟

هناك حزن وعتاب مرير على غياب الأم وبديلتها. هذا كل ما استطعت أن أتلمسه عيادياً، لكنه برز في «رائز تبصر المتون» T.A.T موقف من المرأة والأم غاب عني (أو ربما أخفاه قسراً لأنني امرأة). فهو يرى المرأة إما زوجة خائنة أو عشيقة كبيرة السن وانتهازية. ويرى العلاقة بين الزوجين على انها خبيثة وتتسم باللامشاركة والمصلحة الذاتية لكل طرف فيها.

هل هذا الموقف تبرير وعقلنة لاخفاقه في إقامة علاقة عاطفية مع فتاة؟ أم ان ذلك دفاع عن جنسيته المثلية وتبريرها؟ أو، هل هو احتجاج ومقاطعة لأمه ولبديلاتها الخائنات المتخليات المحبطات... الخ.؟

إن أمه، برأينا، موجودة رمزياً وتطبع بنيانه النفسي كله. نعني أن حيدر يقدم في خطابه وفي مواقفه عناصر يُستدل منها انه لم يتخلص من علاقته الدمجية بأمه (أو بديلتها). فهو يتأرجح في أفكاره ومواقفه ومشاعره تجاه العالم الخارجي وكأن هذا العالم ما هو إلا نماذج متكررة لصورة الأم «الطيبة» و«السيئة» معاً. فهو يرتمي في حضن هذه

الأم دون أي تردد، احتماء من القلق والتهديد اللذين تثيرهما صورة الأم نفسها. والمقابلات كلها تنضح بالأمثلة، منها:

أ ــ الحكومة ترسل جواسيس خلفه وهو سوف **يشكو** هؤلاء الجواسيس للبوليس **والحكومة.**

ب ــ الله مزاجي يخلق عباده **ويتركهم** دون أن يعتني بهم، كما تركه في اللحظات الحرجة، ولكن **الله** وحده قادر على شفائه، لذلك فهو **يستسلم** له ويعتبر العودة إليه دليلاً على شفائه.

ج ــ الإدارة في المستشفى سلطت عليه الجنيّات والأبالسة **للتخفيف من قدراته** ولكنها أخذت دماء من المرضى ووضعتها في زجاجة كي تجذب إليها الجنيات والأبالسة **وتخفّف من تأثيرها عليه.**

صحيح أن الحكومة، والله، وإدارة المستشفى هي كلها، من حيث المبدأ، رموز ذكرية لأنها رموز سلطة عليا، إلا أنها هنا، بحكم علاقة حيدر بها، رموزاً انثوية ربما لأنه يرى ذاته واقعاً تحت سلطة هي أساساً انثوية.

نستطيع في هذا السياق أن نفهم موقف حيدر الخاص من المستشفى، ذلك الموقف العدائي أبداً والذي تخف حدّته فقط عندما يطمئن إلى أنه قد يتركها.

إن موقف المرضى العام من هذا المستشفى سلبي، إلا أن موقف حيدر هو حاد بشكل ينتفض له جسمه انتفاضاً. والمستشفى ليست بالنسبة له مكاناً محايداً: هي مبعث مرضه وتغذي هذياناته وهلوساته، الخروج منها يوازي عنده الدخول في الحياة للانجاز وللتفتيش عن حريته الذاتية ولتحقيقها. ويمكننا بالتالي افتراض أن المستشفى بالنسبة له رمز لأمه التي تود ابتلاعه أو إلصاقه بها وذلك بإغراقه أكثر وأكثر في مرضه بحجة حضنه ومحاولة شفائه. هكذا تصبح رغبته العارمة في أن يخلصه أبوه وأخوته منها صرخةً للأب (القوي والطبيب) لمساندته في وجه طغيان الأم وتسلطها بوجهي هذا التسلط: الأم «الطيبة» والأم «السيئة»، وتصبح رغبته بالانجاز... الخ محاولة للتماهي (Identification) بذلك الأب الطيب (وبدائله) وكأن حدسه الداخلي يدل على أن هذا طريقه للخلاص.

هكذا فإن حيدر لم يتوصل لأن يحل مآزمه «الأوديبية»(*) ربما لأنه لم ينه أصلاً علاقته

(*) لا يكفي أن تكون رغباته مكبوتة كما لمسنا ذلك في اشتقاقاتها. فالتهديد بالإخصاء الذي تمارسه السلطة الأبوية ورموزها يجب أن يؤدي إلى الغاء هذه الرغبات تماماً.

بأمه، أو بديلتها. فهل تم ذلك لأن صورة أبيه في الأصل لم تكن «طيبة» بشكل كاف لتستقطب تماهيه الأول، والذي يشكل نواة تماهيه الثاني الذي يعطيه هويته الذكرية؟ هل كانت هذه الصورة «سيئة» إلى حد جعل حيدر يحتمي بحضن أمه ـ ربما الحامي بافراط ـ هرباً من تلك الصورة؟ أم أن هذا التماهي قد تم ـ كما يستدل من بعض عناصر ذكرية غائمة في شخصيته ـ متساوقاً كما هي الحال عند كل الأطفال، مع تماهيه بموضوعه العاطفي الأول، أمه، ولكنه وفي الفترة الأوديبية لم يخضعه لأولوية تماهيه مع أبيه كما يحدث عند الأسوياء؟

إن موت أم حيدر، وبديلتها، وهو في الخامسة، والذي عاشه على أنه مصيبة كبرى، قد يكون السبب العميق في احداث الخلل في عملية التماهي عنده، وبالتالي في عدم انحلال عقدة أوديب في بنيته النفسية، إذ إن فقدان الموضوع العاطفي، كما يقول فرويد، تدركه «الأنا» بألم شديد في الفترة الطفولية وتدافع عن نفسها ضد هذا الألم باستدخال هذا الموضوع. وهي تؤكد لـ «الهو» (المعنيّ أساساً بالموضوع العاطفي والذي تشكل «الأنا» واسطة معه): «أنا أيضاً أصلح لأكون موضوعك العاطفي، فأنا تماماً مثله».

هذه اذن، أوالية التماهي مع الأم. وتجد نواتها في تماهي الطفل الأولي بغض النظر عن جنسه، مع أمه من جهة، وفي القطب السلبي لعقدة أوديب من جهة ثانية: أي في الثنائية الجنسية (Bisexuality) الكامنة في كل فرد بشري.

هكذا يجد التماهي الطفولي الأولي مع أمه تعزيزاً ويقف عائقاً مهماً في وجه تحقيق التماهي الثانوي مع أبيه الذي يفترض فيه أن يشكل الخطوة الرئيسية في حل عقدة أوديب عنده. وهذه الخطوة تفترض اخضاع التماهيات الأخرى المتعددة «للأنا» لسيطرة هذا التماهي، وتنفي أسبابها في الوعي ـ نقصد التماهي الحاصل من المرحلة الفميّة (oral stage) والذي تمّ على أساس التيار الليبيدي الأنثوي عند حيدر.

هكذا نجد عنده تعايشاً لعقدة أوديب بقطبيها:

أ ـ الإيجابي: هو يرغب أمه وكل قريباته ويخاف من تهديد الخصاء من أبيه وكل السلطات البديلة ويكرهم لذلك.

ب ـ السلبي: هو يرغب أباه (وأخوته وأقرباءه) وهو لذلك يرغب في الخصاء ويكره أمه (كل العشيقات والزوجات).

وانحلال عقدة أوديب هو، من وجهة نظر التحليل النفسي، الانتصار الذي يحققه كل حيوان بشري في معركة انتمائه لعالم الإنسانية: عالم القانون والنظام. إن حيدر ذا الرابعة والعشرين ما زال يخوضها حتى الآن. إلا أنه يخوض معارك جانبية تثقل همته: معركته الدمجية مع أمه مثلاً. وهذا الصراع ما تزال «أناه» تتخبط فيه وهي منقسمة على ذاتها. فمرة نرى حيدر المتخبط في خضم عقده وقد أطلقت «أناه» العقال لـ «الهو» يهذي ويهلوس، يغضب وينفجر، ثم نعود فنرى حيدر هادئاً حكيماً فنعلم ان «أناه» قد سلمت زمام أمرها «للأنا الأعلى»: اجتيافاً كاملاً، (introjection) لا ـ شخصياً لصورة السلطة التقليدية. أما مقدرة هذه «الأنا» على المكاملة بين هذين الركنين من ذاته فتكاد تقترب من الصفر، بشكل يجعل **عالمه الظواهري** (phenomenological world) غائماً متأرجحاً لا يكاد يملك نقاطاً ثابتة يستطيع أن يرجع إليها: الله؟ أهله؟ السلطات؟ الطبيب؟ ذاته؟ كل هذه تملك وجهين مختلفين، منفصلين، متلاحقين في حقله الإدراكي.

لقد بدأ هذا **العالم** يرتسم ويأخذ شكلاً ما. ولا شك في أن شعوره باقتراب نهاية العالم هو مؤشر لبداية تشكل عالمه الخاص وانغلاقه عليه. إذ إن سحب التوظيفات العاطفية من العالم الواقعي، يحيل هذا العالم هشاً وساقطاً عملياً، ويُعاش من قبل المريض على أنه نهاية له. وهذه التوظيفات ترتد إلى الذات لتشكل الأساس الطاقوي لشعور العظمة، ومن ثمّ إلى الخارج، إلى أفراد ومؤسسات فعليين أو وهميين، موزّعة عليهم ادوار الاضطهاد في محاولة لإزالة التوتر الذي تخلقه هذه الطاقة في الذات ولإعادة بناء عالم بديل للعالم الذي فقده المريض.

ويلاقي النزوع صوب هذا الوضع معارضة شديدة من «اناه» التي ما تزال تحاول الافلات برعب منه وتقاومه بعناد. ولكن كيف؟

باللجوء إلى عائلته وبالخضوع لقيمها وبالتزلف لها في محاولة كسب موقع في معركة، موقع يراه هو بداية للشفاء، نقصد بذلك إدارة ظهره لهلوساته ولأفكاره القهرية، لأحلامه ومشاعره وخياله، وتحكيم عقله ودينه بديلاً من ذلك ودلالة على سوائه، لاخراجه من المستشفى إلى عالم الأسوياء.

هل تصمد «اناه» في هذه المحاولة؟ أي في وقوفها في وجه «الهو» وفي تبنّي وجهة نظر «الانا الأعلى» تماماً كما حدث في المقابلتين الأخيرتين؟ أم، هل ينفجر الصراع مرة أخرى مفسحاً في المجال لـ «الهو»، كما حدث في المقابلة السادسة فيعود ويضرب بعرض

الحائط «المنجزات» التي تحققت في الطريق إلى السواء كما يراه هو؟

لا نملك جواباً، ولكن الأرجح أن هذا التخبط الذي يعيشه حيدر، والذي هو وليد عالمه المدرك، لن يستقر على نحو ما دون احداث تغيير أساسي فيه، ولعل ذلك يكون عبر دعم خارجي وفعال «لأناه» التي ما تزال تحمل بعض مظاهر الصحة، ما يجعلها تحتل حيزاً أكبر في مواجهة تسلط «الهو» أو «الأنا الأعلى»، وصولاً إلى فك رموز عالمه في التعامل معه.

صدر حديثاً:

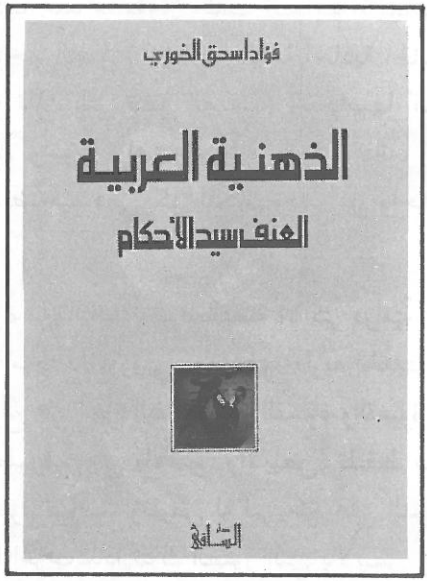

من قديم جعلت الطبول القلوب تخفق، والابواق راحت تنقل الناس الى حنين غامض.

كانوا بدائيين، وصارت للبدائية الأولى «آلات» حديثة، حتى ضاع في الموسيقى ما يفصل البدائي عن الحديث. فهي ننساق معها ونستجيب لها من غير ان نتعلمها او نفهم معانيها. فإذا كان الكلام حصة الإيضاح، فإنها حصة التعبير المحض.

بحركة مثل حركة العواطف الاولى، تخاطب النفس بما يلابسها فحين يطلب منا ان نعرف المشاعر التي تحدثها فينا، نقول شيئاً غامضاً كأننا نفكر حالنا بأصوات متعثرة.

وهذا الغموض يذكرنا بتوما الذي حين سمع، قال انه يريد ان يرى ليوقن ويتأكد. فالسماعي، على عكس البصري، يداني اليقين ويترك الشك قائماً، وهذا سر الإغراء الذي فيه. انه يشبه الخبر وليس الخبر تماماً، ويشبه اللوعة والرغبة والأسى والحنين، ولا يطابقها.

فأن تسمع صوت الحالة يأتيك شيء منها، غير ان الكثير يبقى فيك، وما يبقى هو الشجن الذي يسكن اللحن.

دار الساقي

DAR AL SAQI

26 Westbourne Grove, London W2 5RH

شارع منيمنة، الحمراء، ص.ب: ٥٣٤٢/١١٣ بيروت

ISSN: 1354-3857